حقيقة الرجاء واشتراط الأسباب له

الدكتورمحمد إلياس*

فإن أساس الدين الحنيف "الإسلام" هو علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى، وهذه العلاقة تبني على صفات الله سبحانه وتعالى، ومن هنا كرر الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد ذكر أسمائه الحسنى، فعدد كبير من فواصل آياته تشتمل صفاته، مثل قوله تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)(1)، وأهم صفات الله تعالى وأعظمها شأنا هي صفة الرحمة، فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: "إن رحمتي سبقت غضبي")(2).

وطريق التعلق برحمة الله تعالى هو رجاؤه، ومن هنا يتضح أن أساس الدين هو الرجاء. ولا يخفى على المتابع لما يجرى من الأحداث في واقعنا المعاصر سواء على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو الفردي أو غير ذلك أنّ ما تعاني منه البشرية مردُّ ذلك كله إلى اليأس وإحباط الأمل، فإذا فقد الإنسان أمله حمله ذلك على ترك الجهد ويحمله على الانتحار ويحمله على الإرهاب، ويحمله على أن يكون إنسانا سلبيا، ويحمله اليأس على التدين اليابس، ويحمله على أمور كثيرة أخرى لا تحمد عقباها، فالبشرية على وجه العموم والأمة المسلمة على وجه الخصوص أحوج ما يكون إلى من يبث فيه روح الرجاء والأمل، ويخرجه عن اليأس والإحباط،

فالإنسان الآمل دائما يكون نشيطا و إيجابيا و أحسن أداء لمهماته ووظائفه، ويكون منفتحا على الآخرين، لكن كيف يُدفع اليأس؟ لا شك أن اليأس لا يُدفع إلا بالأمل، ولكن بمن يُعقد الأمل؟ بإنسان؟ بمجتمع؟ بنظام حكومة؟ أو بأمر آخر من المخلوقات؟ لا كلُّ ذلك لا، لأن كلاً من ذلك يخيّب الأمل، وما الفائدة من أمل خاب بعد وقت؟ فلا يجدي عقد الأمل إلا بالله سبحانه وتعالى، فإنه هو الذي لا يخيّب أمل الآملين.

والدين هو الملجأ الذي يلجأ إليه المسلم والأمة الإسلامية، وإذا دخل الفساد في فهم الدين وتطبيقه سقط هذا الملجأ الأخير أيضاً، وإنّ ما تعاني منه الأمة الإسلامية على الساحة الدينية أهمه التطرف في أمور الدين، لكن كيف ينتشر التطرف؟ نشر اليأس من رحمة الله وتغليب الخوف من عذاب الله على الرجاء من رحمة الله وعفوه هو السلاح الوحيد الذي يستخدمه دعاة التديّن الجاف والتقشف والنظر إلى مرتكب أي خطأ نظرةَ سخط زائدٍ على القدر المطلوب، هذا هو مفتاح التطرف، ولا يخفي ما تجني منه الأمة من ثمرات وخيمة، فمعرفة حكم الرجاء من الله تعالى والتركيز عليه ونشره ينبغي أن يكون أهم عنصر في استراتيجية مكافحة التطرّف والتشدد.

وفقنا الله تعالى جميعاً لعمل ما فيه النهوضُ بهمم هذه الأمة وصلاحُها وفلاحُها في الدنيا والعقبى.

حقيقة الرجاء:

إنّ المحققين قد بينوا حقيقة الرجاء حتى لا يغتر به الغفلة والجهلة من تصور كلمة الرجاء فقط، والآن بعض أقوال السلف في هذا الصدد:

قال سعيد بن جبير: "الغرّة بالله عزوجل المقام على معصية الله عزوجل وتمني مغفرة الله عزوجل"(3).

بل إنّ حقيقة الرجاء هو ما بيّنها العلماء الرّبانيون:

ويقول الإمام الغزالي: "أنّ كل ما يلاقيك من مكروه أو محبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضي وإلى منتظر في الاستقبال، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكراً وتذكراً،

---

*المحاضر بقسم الحديث، كلية الدراسات الإسلامية الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، باكستان

وإن كان خطر بقلبك موجود في الحال سمي وجداً وذوقاً وإدراكاً، وإن كان قد خطر ببالك شيءٌ في الاستقبال وغلب على قلبك سمي انتظاراً وتوقعاً، فإن كان المنتظر مكروها حصل منه ألم في القلب سمي خوفاً وإشفاقاً وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به واخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاءً، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بدّ وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فإسم التمني أصدق على انتظاره لأنه انتظارٌ من غير سبب.

وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، أما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب، لأنّ ذلك مقطوع به، نعم! يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه[4].

وعلم أرباب القلوب أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيها، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض والتطهير، وأنّ القلب المستغرق بالدنيا كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا مازرع، ولا ينمو زرعٌ إلا من بذر الإيمان، وقل أن ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً جيداً غير مُسَوَّس ولا عفن، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة، ونقي الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الأرض، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، سمي انتظاره رجاءً.

فأما إن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه، سمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاءً.

وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار، سمي انتظاره تمنياً لا رجاءً.

فإذن إسم الرجاء إنّما يصدق على انتظار محبوب تمهّدت جميع أسبابه الداخلة تحت إختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات وطهّر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاءً محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت.

وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور.

وقال الله تعالى: (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا[5])، وذم الله جل وعلا القائل: (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا)[6].

وإنما الرجاء يحصل بعد تأكد الأسباب، لذلك قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[7].

وأيضاً الرجاء محمودٌ لأنّه باعث على العمل، واليأس مذمومٌ لأنّه صارفٌ عن العمل، وأما الخوف فليس بضد الرجاء بل رفيقٌ له.

ويقول الإمام ابن القيم في حقيقة الرجاء "الرجاء هو عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه، البرّ المحسن فذلك التعلق والتعبد بهذالاسم، والمعرفة بالله هوالذي أوجب للعبد الرّجاء من حيث لا يدري.

فقوّة الرجاء على حسب قوّة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته على غضبه، ولولا روح الرّجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيراً، بل لولا روح الرجاء لما تحرّكت الجوارح بالطاعة ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات.

ولي من الأبيات:

لولا التعلق بالرجاء تقطعــت نفس المحب تحسراً وتمزقـاً
وكذالك لولا برده بحرارة الأكبـ ـاد ذابت بالحجاب تحرّقاً
لولا الرجـاء يحدو المطيَّ لما سرت بحمولها لديارهم ترجو اللقاء

فتأمل هذالموضع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة، فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء، وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير، وبينهما كما بين حاليهما"[8].

وقال الحافظ ابن حجر:

"المقصود من الرّجاء أنّ من وقع منه تقصيرٌ فليحسن ظنه بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا منِ وقع منه طاعةٌ يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور.وما أحسن قول قائل: من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو"[9].

فرأيي المتواضع بعد ذكر أقوال السلف في حقيقة الرجاء هي الكلمات الآتية:

- الرجاء هو انتظار ماهو محبوب في النفس البشري مع الأخذ ومراعاة ما يلزم من الأسباب والمعطيات الدالة على الرجاء.
- الرجاء يتحقق فيما يتردد فيه الفؤاد البشري وأما الأمور البت القاطع فيها فلا يسيغ فيه صحة الرجاء.
- الرجاء يتحقق في إحدى هذه الأمور وهي الرجاء في قبول الطاعة بعد القيام بها، والرجاء في المغفرة بعد التوبة والندم.

اشتراط الأسباب والعمل الصالح للرجاء:

إن الله تعالى نعى على الكفار وخاصة اليهود أنهم يتمنون من الله تعالى الجنة والثواب مع الإساءة في العقيدة، وذكر أن الأماني المجردة بدون اختيار الأسباب اللازمة لا تغني عند الله شيئا، فقال تعالى: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[10])، وقال تعالى: (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[11])، وقال تعالى: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا[12])، وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[13])،

قال الإمام الغزالي في ضمن هذه الآية الأخيرة:

"معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجو، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء"[14].

وقال تعالى في مقام آخر: (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا، وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا[15])،

وقال الإمام ابن كثير في هذه الآية:

"قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله

منكم نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله: (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ)، (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ).

وقال الإمام ابن كثير أيضاً:

"وقال مجاهد: قالت العرب: لن نبعث ولن نعذب، وقالت اليهود والنصارى: (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى)، وقالوا (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً)"

والمعنى في هذه الآية: أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، وليس كل من ادعى شيئا حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال: "إنه هو المحق" سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، ولهذا قال تعالى: (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ) أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله، واتباع ما شرعه على ألسنة رسله الكرام، ولهذا قال بعده: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) كقوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)[16].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:"الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله"[17].

قال الإمام الترمذي:

"ومعنى قوله: من دان نفسه يقول: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة، ويُروى عن عمر بن الخطاب قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا، ويُروى عن ميمون بن مهران قال: لا يكون العبد تقيا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه".

وقال الشيخ المباركفوري في شرح هذا الحديث: "الكيّس أي العاقل المتبصر في الأمور الناظر في العواقب...، والعاجز المقصّر في الأمور... "[18].

ويقول الشيخ محمد بن الصالح بن العثيمين في شرحه على رياض الصالحين:

"قوله الكيس معناه الرجل الذي يغتنم الفرص ويتخذ لنفسه الحيطة حتى لا تفوت عليه الأيام والليالي فيضيع، وقوله من دان نفسه أي من حاسبها ونظر ماذا فعل من المأمورات وماذا ترك من المنهيات هل قام بما أمر به وهل ترك ما نهى عنه؟ إذا ما رأى من نفسه تفريطا في الواجب استدركه إذا أمكن استدراكه وقام به أو بدله وإذا رأى من نفسه انتهاكا لمحرم أقلع عنه وندم وتاب واستغفر، وقوله عمل لما بعد الموت يعني عمل للآخرة لأن ما بعد الموت فإنه من الآخرة وهذا هو الحق والحزم أن الإنسان يعمل لما بعد الموت لأنه في هذه الدنيا مار بها مرورا والمآل هو ما بعد الموت فإذا فرط ومضت عليه الأيام وأضاعها في غير ما ينفعه في الآخرة فليس بكيس الكيس هو الذي يعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وصار لا يهتم إلا بأمور الدنيا فيتبع نفسه هواها في التفريط في الأوامر وفعل النواهي ثم يتمنى على الله الأماني، فيقول الله غفور رحيم، وسوف أتوب إلى الله في المستقبل، وسوف أصلح من حالي إذا كبرت، وما أشبهه من الأماني الكاذبة التي يمليها الشيطان عليه فربما يدركها وربما لا يدركها، ففي هذا الحديث الحث على انتهاز الفرص، وعلى أن لا يضيع الإنسان من وقته فرصة إلا فيما يرضي الله عز وجل، وأن يدع الكسل والتهاون والتمني، فإن التمني (المحظ) لا يفيد شيئا كما قال الإمام الحسن البصري (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقته الأعمال)".

أسس عامة للجمع بين الرجاء والخوف:

ليس المطلوب من المؤمن أن يخاف الله فقط، ولا أن يرجو الله فقط، بل المطلوب هو الجمع بينهما، هذا ما دل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، ولايتم الحديث عن الرجاء إلا مع إلقاء نظرة على جانب آخر من الصورة وعلى قرين للرجاء في الأحكام الإسلامية، ألا وهو الخوف، فإن الرجاء لا يكفي وحده، بل يجب أن يصاحبه الخوف من الله تعالى، كما أن الخوف من الله تعالى لا يكفي وحده بل يجب أن يكون معه الرجاء من الله تعالى، فعلاقة الخوف مع الرجاء علاقة وثيقة لا يتم الحديث عن أحدهما إلا مع الحديث عن الآخر، فالآن نلقي نظرة عامة على القواعد والأسس التي تقتضي الجمع بين الخوف والرجاء.

أولاً: الأمن واليأس ممنوعان شرعا:

الرجاء واجب، ودرجاته متفاوتة بتفاوت الأشخاص والحالات، فلا يكلف الإنسان بالحصول على أعلى درجات الرجاء ولا على أعلى درجات الخوف في كل حال، كما لا يجوز له الخلو من واحد منهما، فيجب عليه أن يكون لديه رجاءٌ مّا ولو أدنى درجة منه كما يجب عليه أن يكون في قلبه خوفٌ مّا ولو أدنى درجة منه، من هنا قالوا: يجب الجمع بين والخوف والرجاء، وقالوا: الإيمان بين الخوف والرجاء، وذلك لأن الإنسان إذا خلا من الخوف مطلقا يكون هذا أمنا من مكر الله، والأمن من مكر الله لا يجوز البتة، لقوله تعالى: (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)[19]، وكذلك إذا خلا الإنسان من الرجاء مطلقا كان يأسا من رَوْح الله وهو أيضاً ممنوع، لقوله تعالى: (إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)[20].

حكم من خلا عن الخوف أوالرجاء:

فوجب وجود الرجاء والخوف معا، لانعرف لأحد من العلماء اختلافا في ذلك، لكنهم اختلفوا في درجة الوجوب، هل ترك هذا الواجب يُعَدّ كفرا أم فسقا، فذهبت الحنفية إلى كونه كفرا وذهبت الشافعية إلى كونه فسقا، وحمل بعضهم الكفر على التغليظ والتشديد.

قال الإمام الآلوسي[21]:

> "واستدلت الحنفية بالآية على أن الأمن من مكر الله تعالى وهو كما في جمع الجوامع الاسترسال في المعاصي إتكالا على عفو الله تعالى كفر، ومثله اليأس من رحمة الله تعالى لقوله تعالى: (إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)[22]،وذهبت الشافعية إلى أنهما من الكبائر لتصريح ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بذلك، وروى ابن أبي حاتم والبزار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وآله وسلم سئل، ما الكبائر؟ فقال: الشرك بالله تعالى، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وهذا أكبر الكبائر، قالوا: وما ورد مِنْ أن ذلك كفرٌ محمول على التغليظ، وآيةٌ: لا ييأس الخ كقوله تعالى: (الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ)[23] و (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)"[24].

وقد أطلق الحسن البصري اسم الفاجر على الذي يأمن من مكر الله،

فذكر الإمام ابن كثير عن الحسن البصري أنه قال: "المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُشْفِق وَجِل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن"[25].

وذكر الإمام النسفي أن المراد بـ "القوم الخاسرون" في الآية المذكورة الكفار، حيث قال: فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إلاَّ القوم الخاسرون، إلا الكافرون الذين خسروا أنفسهم حتى صاروا إلى النار[26].

ويشير الإمام الفخر الرازي إلى أنه أراد بـ "القوم الخاسرون" في الآية المذكورة الكفار، وإن لم يصرح بذلك حيث قال:

وبين أنه لا يأمن من نزول عذاب الله على هذا الوجه "إلا القوم الخاسرون"، وهم الذين لغفلتهم وجهلهم لا يعرفون ربهم، فلا يخافونه، ومَنْ هذه سبيله فهو أخسر الخاسرين في الدنيا والآخرة، لأنه أوقع نفسه في الدنيا في الضرر، وفي الآخرة في أشد العذاب[27].

وقال الإمام البيضاوي في تفسير "القوم الخاسرون" الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار [28].

والرازي والبيضاوي كلاهما شافعيان، فعلم أن ما نسبه الآلوسي إلى الشافعية من القول بفسق من خلا عن الرجاء أو الخوف دون كفره ليس على إطلاقه، وليس ذلك مذهب لجميع الشافعية.

وكذلك حمل كثير من العلماء "القوم الكافرون" على حقيقته، قال الإمام الطبري: إلا القوم الكافرون، يعني: القوم الذين يجحدون قُدرته على ما شاءَ تكوينه[29].

وقال الإمام ابن كثير:

> أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون[30].

وقال الإمام ابن الجوزي: إنه لاييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون، لأن المؤمن يرجو الله في الشدائد[31].

وقال الإمام البيضاوي: إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ، بالله وصفاته، فإن العارف المؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال[32].

ويقول الإمام ابن عطية:

> ويظهر من حديث الذي قال: إذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في البحر والبر في يوم راح، فلئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من الناس، إنه يئس من روح الله، وليس الأمر كذلك، لأن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في آخر الحديث فغفر الله له يقتضي أنه مات مؤمناً إذ لا يغفر الله لكافر، فبقي أن يتأول الحديث، إما على أن قدر بمعنى ضيق وناقش الحساب، فذلك معنى بين، وإما أن تكون من القدرة، ويقع خطأ في أن ظن في أن الاجتماع بعد السحق والتذرية محال لا يوصف الله تعالى بالقدرة عليه فغلط في أن جعل الجائز محالاً، ولا يلزمه بهذا كفر[33].

و لا يرد هذا الإشكال إلا إذا حُمل "الكافرون" في الآية المذكورة على الكفر الحقيقي، وقد ذكر الإمام القرطبي الوجهين إطلاق الكفر وإطلاق الكبيرة، حيث قال:

> وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، أي لا تقنطوا من فرج الله، قاله ابن زيد، يريد: أن المؤمن يرجو فرج الله، والكافر يقنط في الشدة، وقال قتادة والضحاك: من رحمة الله، إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ، دليل على أن القنوط من الكبائر، وهو اليأس[34].

هذه النصوص تدل على أنه لم تتفرد الحنفية بإطلاق الكفر على من خلا من الرجاء أو الخوف، ويمكن التوفيق بين الرأيين بأنه يُحكم بالكفر إذا كان هناك فساد في الاعتقاد، مثل أن يعتقد في الأمن من مكر الله أن الله تعالى لا يقدر على تعذيبه (والعياذ بالله) ويُحكم بالفسق إذا لم يكن هناك فساد في العقيدة، يقول الإمام الآلوسي موفقا بين الرأيين:

وقال بعض المحققين: إن كان في الأمن اعتقاد أن الله تعالى لا يقدر على الانتقام منه، وكذا إذا كان في اليأس اعتقادُ عدم القدرة على الرحمة والاحسان أو نحو ذلك فذلك مما لا ريب في أنه كفر، وإن خلا عن نحو هذا الاعتقاد، ولم يكن فيه تهاونٌ وعدمُ مبالاة بالله تعالى فذلك كبيرة، وهو كالمحاكمة بين القولين[35].

وقريب منه ما قاله الإمام فخر الدين الرازي:

> واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير

قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا، والله أعلم[36].

ثانياً وسطية هذه الأمة تقتضي الجمع بينهما:

وهناك سبب آخر يقتضي الجمع بين الرجاء والخوف، وهو أن الوسطية من خصائص هذه الأمة، فأمِرنا بالدعاء بالصراط المستقيم في كل صلاة، والصراط المستقيم هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط،

وقال الله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا[37])،

يقول الإمام ابن جرير الطبري في تفسير الآية المذكورة:

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وكذلك جَعلناكم أمة وسطًا"، كما هديناكم أيّها المؤمنون بمحمد عليه السلام وبما جاءكم به من عند الله، فخصصناكم بالتوفيق لقِبلة إبراهيم وملته، وفضلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل، كذلك خصصناكم ففضَّلناكم على غيركم من أهل الأديان، بأن جعلناكم أمة وسطًا.

ويقول أيضاً:

قال أبو جعفر: وأنا أرى أن"الوسط" في هذا الموضع، هو"الوسط" الذي بمعنى: الجزءُ الذي هو بين الطرفين، مثل"وسَط الدار" محرَّك الوَسط مثقّله، غيرَ جائز في"سينه" التخفيف.

وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم"وسَط"، لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هُم أهلُ تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها[38].

وقال الإمام البغوي:

أي خيرهم وأعدلهم، وخير الأشياء أوسطها، وقال الكلبي يعني أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان في الدين[39].

وقال الإمام أبو حيان:

وقيل: المعنى أنه شبه جعلهم أمة وسطاً بجعلهم على الصراط المستقيم، أي جعلناكم أمة وسطاً مثل ذلك الجعل الغريب الذي فيه اختصاصكم بالهداية، لأنه قال: {يهدي من يشاء}، فلا تقع الهداية إلا لمن شاء الله تعالى، وقيل: المعنى كما جعلنا قبلتكم خير القبل، جعلناكم خير الأمم، وقيل: المعنى كما جعلنا قبلتكم متوسطة بين المشرق والمغرب، جعلناكم أمة وسطاً، وقيل: المعنى كما جعلنا الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمة وسطا[40].

فمن خصائص هذه الأمة وسطيتها وخلوها عن طرفي الإفراط والتفريط، فالرجاء المحض الخالي عن الخوف أحد طرفي الإفراط والتفريط، والخوف الخالي عن الرجاء طرف آخر منهما، فلا تتحقق الوسطية إلا بالخلو من الإفراط والتفريط[41]، ولا يتحقق الخلو منهما إلا بالجمع بين الخوف والرجاء، وقد رُوي في مطلوبية الوسطية حديث آخر، لفظه متكلم فيه لكن معناه صحيح ثابت بنصوص أخرى، وقد تكلم على الحديث العلامة السخاوي، وكلامه مفيد ننقله هنا بكامله:

حديث: خير الأمور أوساطها، ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد بسند مجهول عن علي مرفوعاً به، وهو عند ابن جرير في التفسير من قول مطرف بن عبد الله ويزيد بن مرة الجعفي، وكذا أخرجه البيهقي عن مطرف، وللديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعاً: خير الأعمال أوسطها، في حديث أوله: دوموا على أداء الفرائض

وللعسكري من طريق معاوية بن صالح عن الأوزاعي قال: ما من أمر أمر الله به إلا عارض الشيطان فيه بخصلتين لا يبالي أيهما أصاب الغلو والتقصير، ولأبي يعلى بسند رجاله ثقات عن وهب بن منبه قال: إن لكل شيء طرفين ووسطاً فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان فعليكم بالأوسط من الأشياء ويشهد لهذا كله قوله تعالى "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط" وقوله: "لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً" وقوله "ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا" وقوله "إنها بقرة لا فارض ولا بكر" وهي الشابة "عوان بين ذلك" وكذا حديث الاقتصاد وأنشد بعضهم:

عليك بأوساط الأمور فإنها... نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

وقال آخر:

حب التناهي غلط... خير الأمور الوسط(42).

ثالثاً: الجمع بينهما مقتضى معرفة صفات الله تعالى:

فالرجاء مقتضى صفات الله التي ترجع إلى الرحمة، والخوف مقتضى صفاته التي ترجع إلى الغضب، فمن كان لديه الرجاء عرف النوع الأول من الصفات، ومن خاف الله عرفَ النوع الثاني منها، ومن كان خاليا عن الرجاء أهمل النوع الأول من الصفات، ومن خلا عن الخوف أهمل النوع الثاني منهما، ومن خلا من كل منهما فقد أهمل الصفات كلها، وكل واحد من هذه الحالات تقصير في حق الله سبحانه وتعالى، لأن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن ينبئهم عن رحمته تعالى وعذابه، فقال: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)(43)، فثبت أن معرفة كل نوع من صفات الله تعالى مطلوبة شرعاً.

قال الإمام ابن جرير الطبري:

وقوله (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم: أخبر عبادي يا محمد! أني أنا الذي أستر على ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا، بترك فضيحتهم بها وعقوبتهم عليها، الرحيم بهم أن أعذّبهم بعد توبتهم منها عليها (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ)، يقول: وأخبرهم أيضاً أن عذابي لمن أصرّ على معاصيّ وأقام عليها ولم يتب منها، هو العذاب الموجع الذي لا يشبهه عذاب، هذا من الله تحذير لخلقه التقدم على معاصيه، وأمر منه لهم بالإنابة والتوبة،

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ) قال: بلغنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "لَوْ يَعلمُ العبدُ قَدْرَ عَفْوِ اللَّهِ لما تورّعَ من حرام، وَلو يَعلم قَدْر عَذابِهِ لبخَعَ نفسَه"،

حدثني المثنى، قال: أخبرنا إسحاق، قال: أخبرنا ابن المكيّ، قال: أخبرنا ابن المبارك، قال: أخبرنا مصعب بن ثابت، قال: ثنا عاصم بن عبد الله، عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال:" طلَع عَلَيْنَا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، فقال: ألا أرَاكُمْ تَضْحَكُونَ؟ ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى، فقال: إنّي لمَّا خَرَجْتُ جاءَ جَبْرَئِيل عليه السلام فقالَ: يا مُحَمَّد! إنَّ الله يَقُولُ: لِمَ تُقنِّطُ عبادِي؟ نبِّئْ عبادِي أنّي أنا الغَفُورُ الرَّحِيمُ وأنَّ عَذَابي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ"(44).

الهوامش

[1]. الإسراء: 110.
[2]. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم، رقم 7422، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط 1 / 1419هـ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.
[3]. المحاسبي، أبو عبدالله الحارث بن أسد، الرعاية لحقوق الله، ص: 375، 381، تحقيق خيري سعيد، ط 5 / 1419هـ، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.
[4]. الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، ص: 2/ 142-143، ط 4 / 1424هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
[5]. الأعراف: 129.
[6]. الكهف: 36.
[7]. البقرة: 218.
[8]. الجوزية، ابن القيم، مدارج السالكين، ص: 2/44-43، دار الكتب العلمية، ط 1 / 1414هـ، بيروت، لبنان.
[9]. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري، ص: 301/11، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط 2 / 1400هـ، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر.
[10]. البقرة: 111-112.
[11]. البقرة: 80-82.
[12]. الأعراف: 189.
[13]. البقرة: 218.
[14]. الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، ص: 143/2.
[15]. النساء: 123-125.
[16]. الزلزلة: 7-8.
[17]. الترمذي، محمد بن عيسى، جامع الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله برقم 2383، وقال الترمذي هذا حديث حسن، ط 1 / 1420هـ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.
[18]. المباركفوري، محمد بن عبدالرحمن، تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي برقم 2383، ط 1 / 1400هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
[19]. الأعراف: 99.
[20]. يوسف: 87.
[21]. الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، روح المعاني، ص:13/9، ط 6 / 1417هـ، دار الفكر، بيروت، لبنان.
[22]. يوسف: 87.
[23]. النور: 3.
[24]. المجادلة: 22.
[25]. ابن كثير، أبو الفداء محمد بن إسماعيل، تفسير القرآن العظيم ص:451/3، ط 1 / 1419هـ، مكتبة دار السلام، الرياض، المملكة العربية السعودية.
[26]. النسفي، عبد الله بن احمد بن محمود، تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل :382/1، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، ط 4 / 1420هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
[27]. الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، ص: 195/7، ط 4 / 1420هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[28] البيضاوي، أبو الخير ناصر الدين عبدالله، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص:43/3، ط 1 / 1402هـ، ار الفكر، بيروت، لبنان.
[29] الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ص:232/16، ط 1 / 1423هـ، دار الأعلام، لرياض، المملكة العربية السعودية.
[30] ابن كثير، للإمام، تفسير القرآن العظيم ص: 34/4.
[31] الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، ص: 23/4، ط 1404/1هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
[32] البيضاوي، أبو الخير ناصر الدين عبدالله، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص:306/3.
[33] الأندلسي، عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص:38/4، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ط 1 / 1395هـ، مطبعة فضالة, المغرب.
[34]- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ص:214/9، تحقيق أحمد عبد الحليم البردوني، ط 3 / 1422هـ، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، لبنان.
[35]- الآلوسي، للإمام، روح المعاني، ص:13/9.
[36] الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، ص:45/13.
[37]- البقرة: 143.
[38] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ص:142/3.
[39] البغوي، أبومحمد الحسين بن مسعود الفراء، تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل، ص:158/1، ط 1 / 1414هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
[40] الأندلسي، ابن حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط، ص:51/2.

[42] السخاوي، عبدالرحمن، المقاصد الحسنة في بيان الكثير من الأحاديث المشتهرة، ص:23، تحقيق محمد عثمان، ط 1 / 1405هـ، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان.
[43]. الحجر: 49-50.
[44] الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ص:111/17.